د. محمد حماسة عبد اللطيف

حِوَارٌ مَعَ النيل

(شعر)



الكتاب : حوار مع النيل
المؤلف : د / محمد حماسة عبد اللطيف
رقم الإيداع : ١٥٩٧٠
تاريخ النشر : ٢٠٠٠
الترقيم الدولى : I. S. B. N. 977 - 215 - 527 - 3

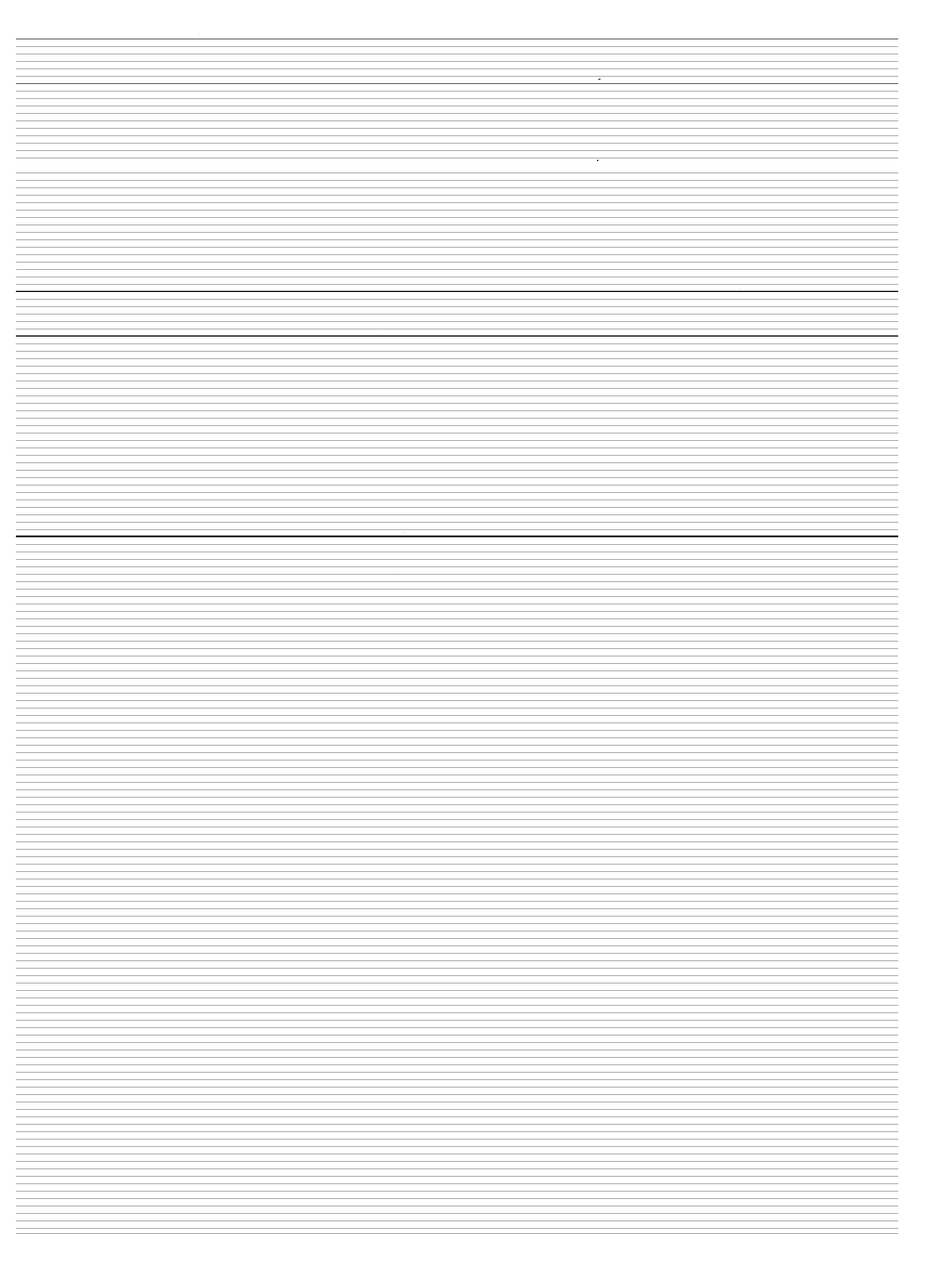
الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة
الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)
ت : ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٧٩٥٤٣٢٤
التوزيع : دار غريب ٣,١ شارع كامل صدقى الفجالة – القاهرة
ت ٥٩٠٢١٠٧ – ٥٩١٧٩٥٩
إدارة التسويق والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر – الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ – ٢٧٣٨١٤٣

إهداء

إلى أبناء نهر النّيل

الذين تفيض قلوبهم بالحبّ

وتكدح سواعدهم بالعمل .



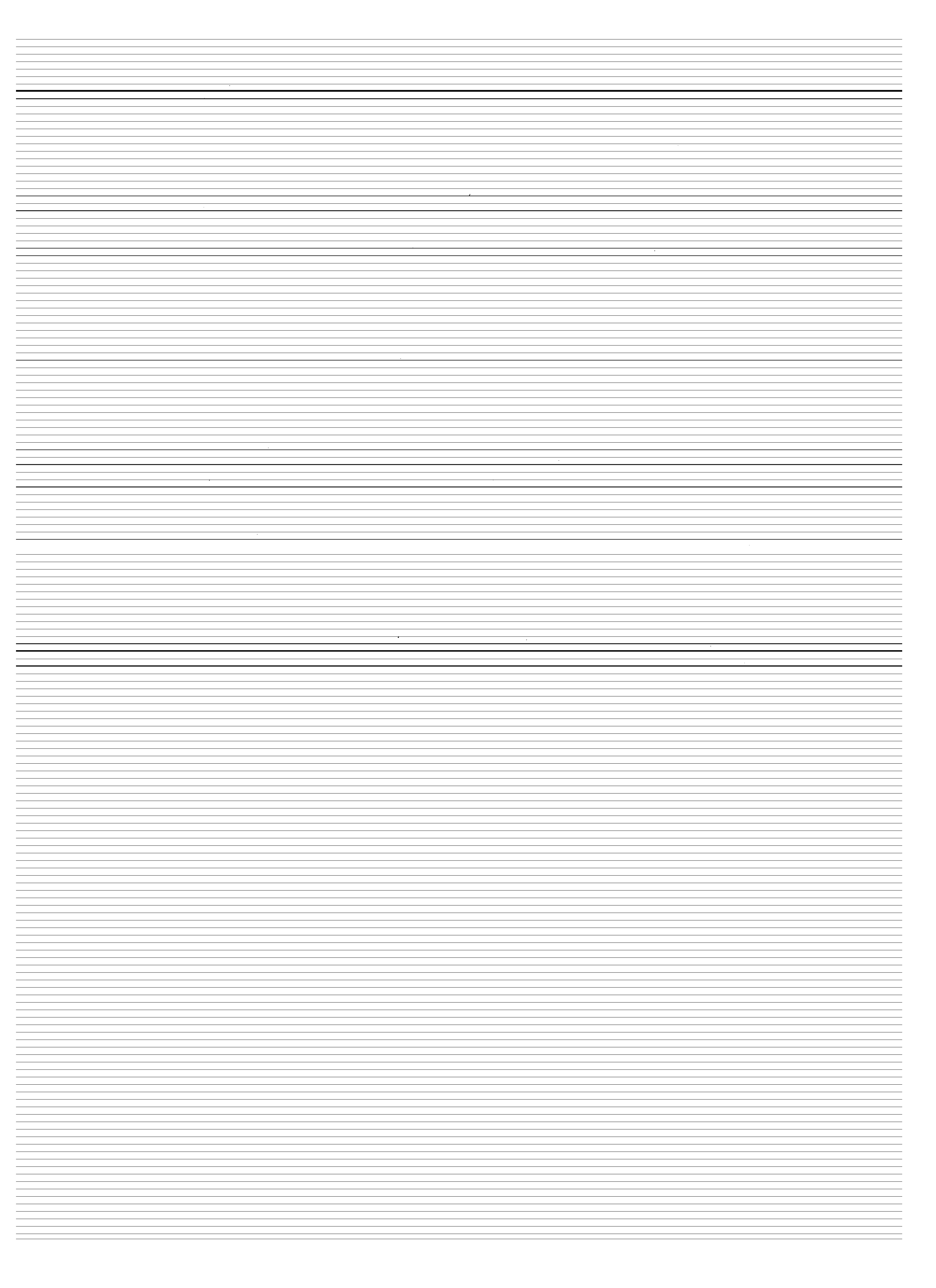
مِنْ أَيِّ عَهْدٍ في القُرى تتدفَّقُ

وَبِأيِّ كَفٍّ في الـمَدائِنِ تُغْدِقُ

ومنَ السماءِ نزلت أم فُجِّرْت مِنْ

عُلْيا الجنانِ جداولا تترقـرقُ

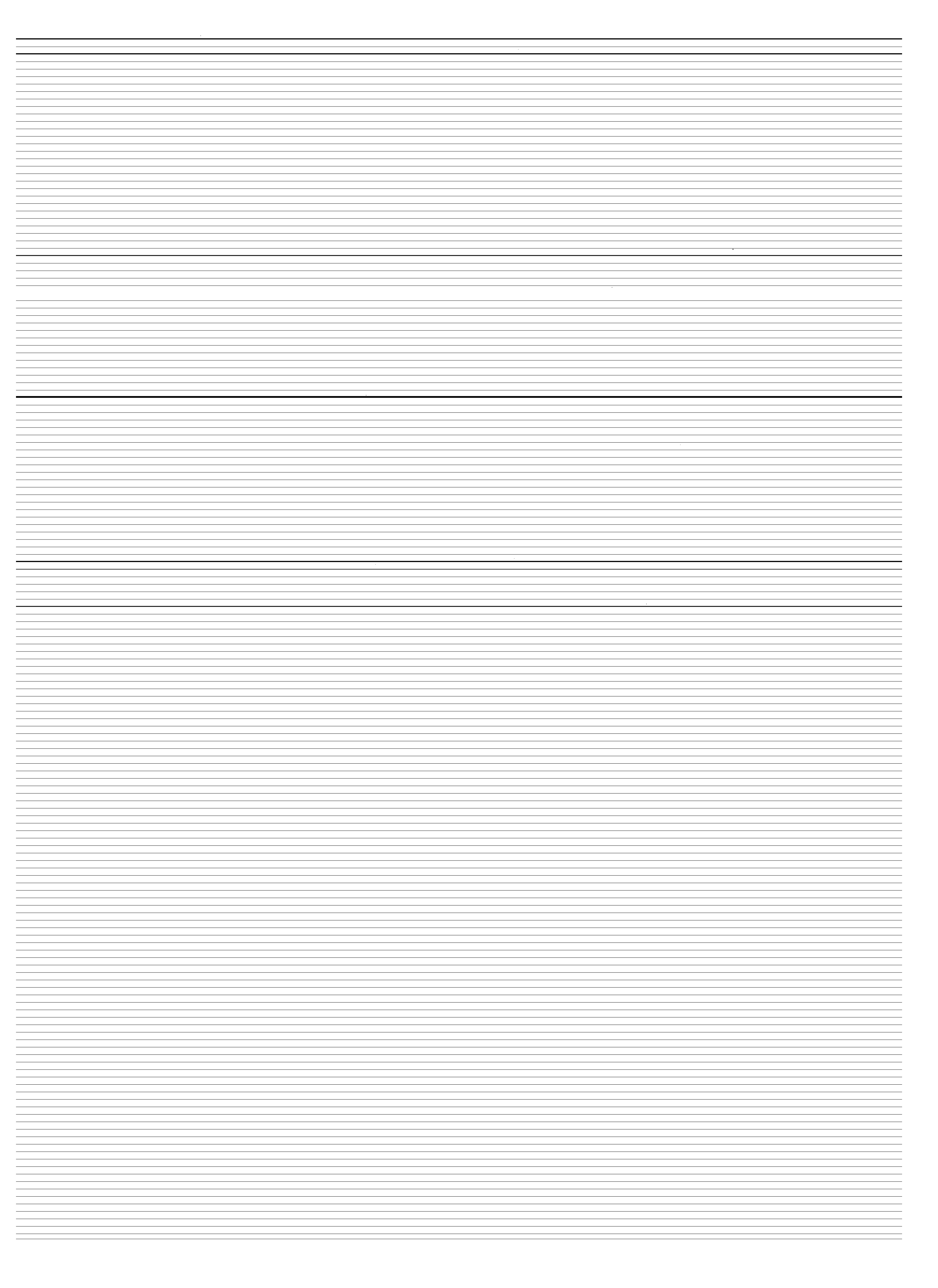
أحمد شوقي



- إننى مُرْسَلٌ مِنْ عُيونِ السّمـــــاءِ

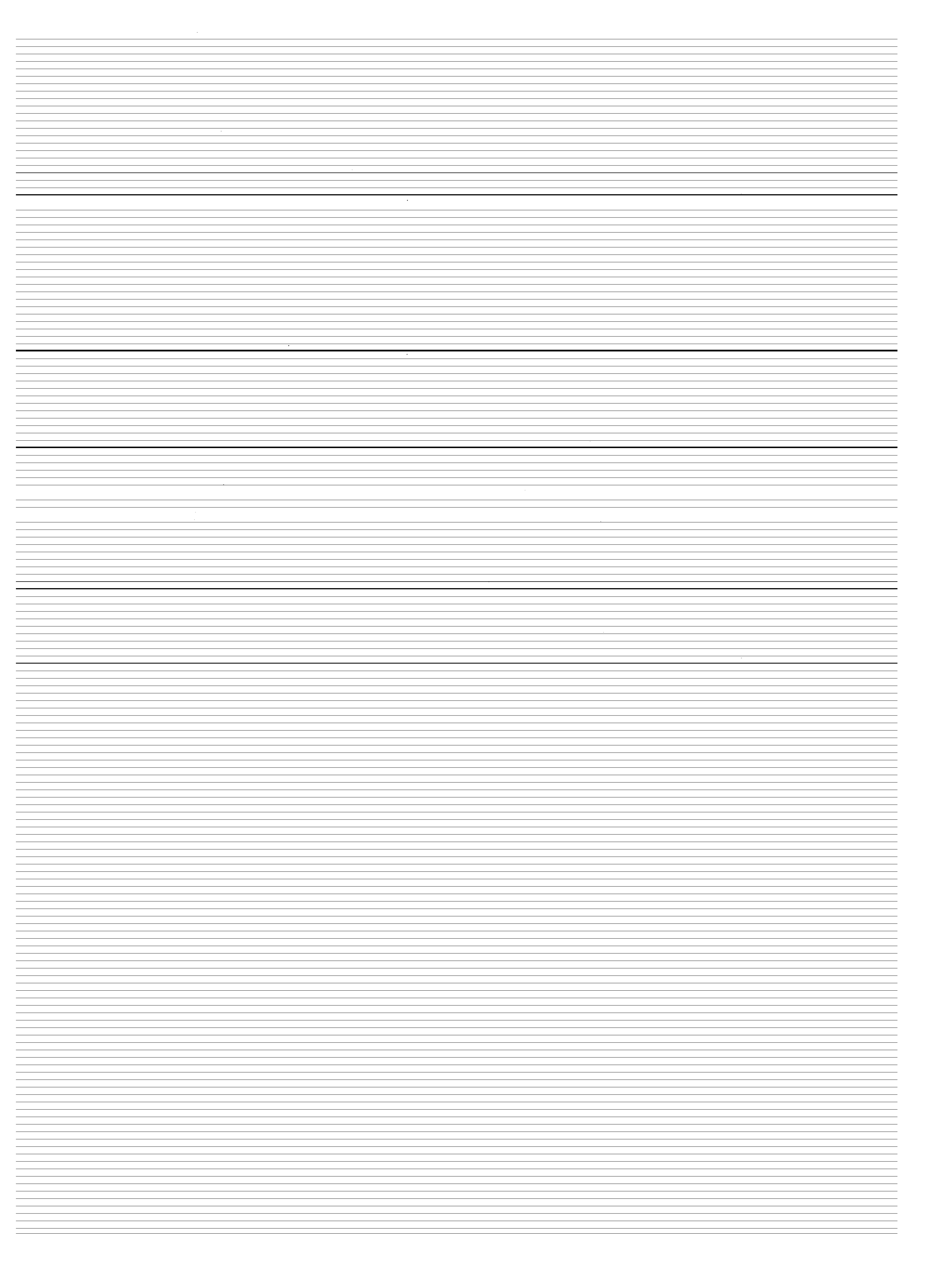
ومِنْ عنْد ربّ شديد المحَـــالْ .

« النيل »



- رُبّ نَهْرٍ يجفّ ؛ لأنَّ عُقولَ ذويه تَجِفّ ،
ونهْرٍ يفيضُ ؛ لأنَّ عقول ذَوِيهِ تَفِيـــــضُ ،
فَيَرْوِي التّلالْ .

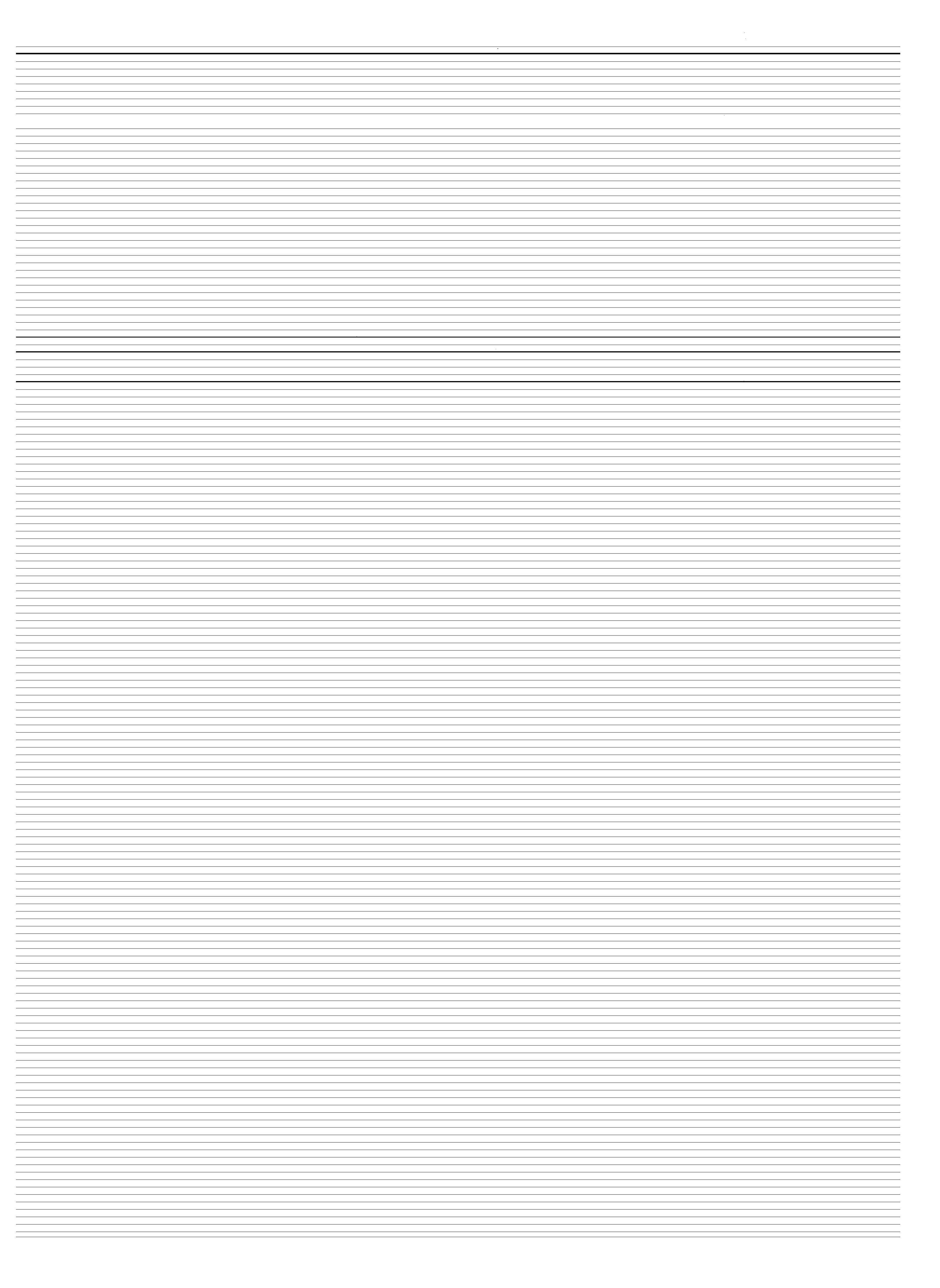
« النيل »



﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾

قرآن كريم

(الزخرف ، الآية ٥١)



هذه القصيدة

١ - بدايةُ هذه القصيدةِ كتبتٌ فى أوائل سنة ١٩٩٣، وبالتحديد فى يناير على شاطىء النيل المحاذى لمنطقة ما قبل المعادى من جهة القاهرة ، حيث كان علىّ أن أنتظر حوالى الساعتين ثم أعود للمستشفى الرابض على طريق الكورنيش ، فرأيت نفسى متسللا بجوار النيل ، أسير بصحبته لأول مرة من زمن طويل ، ورأيت بعينى ما على شاطئه من عدوانٍ عليه ، فهالنى ما رأيت ، وحزّ فى نفسى ، وخيل إلى أنّ النيل يبكى فشرعت فى كتابة مطلع القصيدة على ورقة صغيرة وجدتها بجيب سترتى .

ولما عدت إلى بيتى وضعت الورقة فى مكان أُنسيته ، وضاع من ذاكرتى ، ومرت سبع سنين ، وكنت أبحث عن بعض أوراق أخرى ، فإذا بى أجد هذه الورقة الصغيرة التى كتبت بها مطلع هذه القصيدة ، ولست أدرى لماذا كان فرحى بها شديدا ، مع أنّ لدى مطالع قصائد كثيرة كتبتها وألقيت بها ، وتقع فى يدى من حين إلى آخر ، وأقرؤها فلا أجد لها فرحًا فى نفسى أو سرورا بقلبى ، غير أنّها تذكرنى بتلك اللحظة التى كتبت فيها هذا البيت أو هذه الأبيات .

أمّا هذه الورقةُ الصغيرةُ التى كتبتُ بها مطلعَ هذه القصيدة ، فقد كان لها وقعٌ خاصٌّ فى نفسى . ونفسُ المرءِ غريبةٌ ، تهش لأشياء وتسعد لأشياء ، وتبتئس لأشياء أو تحزن لأشياء دون أسباب واضحة فى منطق العقل .

الذى حدث أننى أخذت هذه الورقة الصغيرة التى كتبت بها مطلع هذه القصيدة ، وتركت ما كنت أبحث عنه فى أوراقى ، وتركت كلّ شىء آخر ، ووجدتنى أقرأ هذا المطلع ، وأعيد قراءته ، وإذا به يفجر أشياء فى النفس قديمة وحديثة ، ووجدتنى أبحث عن القلم لأسّجل به شيئا مما امتلأت به نفسى ، حتى وصلت إلى جزء منها وجدتنى أختم به القصيدة على النمط نفسه الذى بدأتها به ، وسميتها « حوار مع النيل لم يكتمل » ، وهدأت نفسى شيئًا ما ، لكنّ جّو القصيدة مازال ماثلاً ، تتراءى بعض الجمل ، وأبيات لم يكتمل لها شكلها ، وأرانى أُجرِى هذا فى نفسى ، أو يَجْرى هو على غير إرادةٍ منى إذا خلوت إلى نفسى عندما أريد النوم مثلا ، أو عندما أكون وحدى لأى سبب من الأسباب .

ومثل هذا يحدث لى مع كل قصيدة أكتبها منذ عرفت كتابة الشعر أو منذ عرفنى الشعر . تظل الأبيات ،

أو أنصاف الأبيات ، أو الجمل التى تصلح أن تكون جزءا من بيت ، تظل تحوّم فى النّفس ، وقد تكون إحدى هذه الجمل ، أو أحد هذه الأبيات أو أنصافها هى التى تكون مطلعا لقصيدة تكتمل أو لا تكتمل ، أو تهدى إلى المطلع . هذا دأبى وعادتى منذ أربعين سنة أو يزيد . تزداد هذه الحالة إلحاحا بعد كتابة قصيدة فعلا . يظل « جوّ » القصيدة محوّما مدة تطول أو تقصر حتى تنسحب القصيدة من بؤرة الاهتمام ، ويبدأ التفكير فى قصيدة أخرى من خلال هذا التحويم الشعرى . ينسحب هذا « التحويم الشعرى » إذا شغلت بعمل علمى من أى نوع ، ومن هنا كان عدوان العمل العلمى على الشعر .

وأنا واحد من أولئك الذين ظل الشعر لهم هواية خاصة ، ولذلك لا أعد نفسى من « الشعراء » المتخصصين ، الذين لا عمل لهم سوى الشعر، ولا حياة لهم إلاّ بالشعر ، وهؤلاء قليلٌ على كل حال، بل أعد نفسى

من الشعراء الغاوين أو الشعراء الهواة، وهذا - فى حد ذاته - شرف كبير. ولم أكتب قصيدة قط إلا إذا استطاعت السيطرة علىّ ولم يعد منها مفرّ أو ملاذ إلاّ بكتابتها، ولذلك أعد «المطالع» التى لم تكتمل لدىّ «قصائد ضعيفة» لأنها لم تستطع أنْ تكتب نفسها ، أى أنها لم تستول على صاحبها استيلاء يفرض عليه التفرغ لها وكتابتها .

ليس فى هذا - بطبيعة الحال - مدحٌ أو حكم نقدى من أى نوع على القصيدة التى تكتمل عندى، وإنما هذا حديث أقدمه بين يديك عن تجربتى الخاصة راجيا أن تغفر فيه ماقد يبدو على أنه حديث عن النفس، وأنت وأنا نعلم أن الحديث عن النفس ممقوت ممجوج .

ظننت أننى انتهيت من القصيدة، وأعطيتها العنوان الذى أشرت إليه من قبل، وفرحت بها، شأن كل من ينجز عملا ما، ومن فرحى بها أسمعتها تليفونيا لصديقى حسن

البنداری (*) . وهذه عادة يعرفها الذين يكتبون الشعر، ولعلها هی التی تؤلف بين بعض الشعراء . وكأنّ إسماع القصيدة للآخر نوع من الإفضاء ، أو طلب الاعتراف بها من الآخر .

فی مساء اليوم التالی تحدث إلیَّ أستاذی الصديق الدكتور محمود الربيعی (**) ، ونحن عادة لا يمر يوم إلاّ ونتحدث فيه تليفونيا - إذا لم نلتق - ساعة أو ساعتين . وقد فاجأنی بسؤاله عن هذه القصيدة . فعلمت أن حسن البنداری أنبأه نبأها . وليس مما نتحدث فيه أنا والدكتور محمود الربيعی شعرٌ أكتبه، ولكننی قلت له: أتحب أن أسمعك إياها؟ فقال لی: لا . ولكن هات لی نسخة منها، فأنت تعلم طريقتی فی تذوق الشعر . فأعطيته نسخة منها، مزمعاً نسيان أمرها، ومزمعاً ألاّ أبدأه بعدها بالمكالمة التليفونية حتى يمرَّ عليها وقت يُنْسى أمرها معه . ثم

(*) أستاذ النقد الأدبی بكلية البنات جامعة عين شمس .

(**) الناقد الأدبی المعروف . أستاذ النقد الأدبی بالجامعة الأمريكية بالقاهرة .

فوجئت به يحدثنى فى اليوم التالى لأخذه نسخة القصيدة، وإذا أول شىء يحدثنى فيه - على غير عادته - هو القصيدة . قال لى: لماذا « حوار لم يكتمل » ؟ هذا إذن ليس حوارا، إنه ديالوج، أى حديث نفس، أو نجوى، أرى أن تفتح القصيدة، وتجعلها حواراً حقيقياً، واحذف عبارة «لم يكتمل»، ودع عنك الكسل، وانهض للقصيدة كما يجب .

ومع أنّ الشعر لا يكتب بالتوجيه، وجدت لكلامه صدى قويا فى نفسى، وذلك أنّ جو القصيدة لم يكن قد زايلنى بعد، وكنت أدافع منها صوراً وجُملا شعرية حتى أفرغ لأشياء أخرى، فعدت للقصيدة ووجدتها تنفتح وتطلب مزيداً، وكلما أردت أن أنهيها وجدتها تطلب مزيداً، ووجدت أنها من القصائد التى يمكن أن نطلق عليها «قصائد مفتوحة» فثمة قصائد يمكن أن يطلق عليها «قصائد مغلقة» بحيث يجب أن تنتهى حيث انتهت أو قبل نهايتها بقليل، وتكون كل زيادة عليها حشواً لا تريده ولا تطلبه، ويكون

حشواً مفسداً، وأما القصائد المفتوحة فإنها أنواع، بعضها يكون مفتوحاً زمنيا، وبعضها يكون مفتوحاً موضوعيا، فتكون قابلة مستوعبة لكل ما يدخل فى إطارها.

٢ - لا أحب أن يتحدث الشاعر عن شعره، أو عن قصيدة له، لأنه بحديثه عن هذا الشعر أو هذه القصيدة - من وجهة نظرى - يفسد متعة القارىء أو يحاول أن يدفعه فى طريق محددة قد يكون القارئ متجها فى غيرها، وهو حر فى ذلك تماما، وأنا مع المؤمنين بأنّ الشاعر أمام قصيدته بعد كتابتها مثل أى متلق آخر، وإذا كان له فهم معين لقصيدته لا يكون هذا الفهم ملزما أن يفهمها الآخرون على هذا النحو، فهو فهم أو رؤية مشروعة لا تقف فى سبيل الرؤى الأخرى، ولا تَفْضُلها . والذين يُفَضّلون رؤية الشاعر على غيرها كسالى لا يريدون أن يبذلوا مجهوداً، أو لا يثقون بأنفسهم وبقراءاتهم ورؤاهم فكل منها رؤية مشروعة مادامت قائمة على معطيات

التعبير فى القصيدة نفسها . وأذكر أنه عندما نشرت أولى قصائدى فى مجلة «الشعر» التى كان يرأس تحريرها الدكتور عبد القادر القط، وكان ذلك فى صيف سنة ١٩٦٥، وكانت القصيدة بعنوان «لكننا نسير» وكنت طالبا منقولا إلى السنة الثالثة بكلية دار العلوم، دعانى أحد أساتذة الكلية وقتها إلى جلسة خاصة فى قاعة أعضاء هيئة التدريس بالمكتبة، وقال لى: إننى قرأت قصيدتك فى مجلة الشعر . فسررت بذلك، ولكنه أردف قائلا: ولكننى لم أفهم ماذا تريد أن تقول . فسكت ولم أدر ماذا أقول، فزاد قائلا: هل يمكنك أن تشرح لى ماذا تريد أن تقول . وهنا قلت له : إنّ ما أريد أن أقوله قلته فى هذه القصيدة، وأرى أن عدم الفهم آت من أحد سبيلين، إمّا من قصور فى التعبير، أو قصور فى إعطاء القصيدة حقها من القراءة . ولم أكن أدرى أننى قلت ما يغضب؛ لأنه هنا هبّ واقفاً مريداً الانصراف مردّدا: إنه السبب الأول . أذكر هذه

الواقعة لأبين أنّ هذا ما أفهمه منذ بداياتى فى الشعر، ثم زادته قراءاتى فى النقد الأدبى بعد ذلك فهما ورسوخا .

٣ - وإذا لم يكن من حقى أن أتحدث عن «القصيدة» من حيث بنيتها الدلالية، لأن هذا حق القارىء، ولا أريد أن أسلبه هذا الحق فإننى أعطى نفسى شيئا من الحق - لا بوصفى شاعراً، بل بوصفى دارساً مهتما بالعروض والقافية ضمن ما أهتم به - فى أن أتحدث عن البنية العروضية للقصيدة .

القصيدة من بحر المتدارك الذى تفعيلته «فاعلن» وقد يدخلها الخبن وهو حذف الثانى الساكن فتصير «فَعِلن» بتحريك العين .

ولكن فيها نوعا من الترخص بعدم الالتزام بالعدد الذى قرره العروض التقليدى للبيت وهو ثمانى تفعيلات ، وهذا الترخص قابله التزام بالقافية، فالقافية لامّية مقيدة

أى ساكنة ، مسبوقة بردْف هو الألف فى جميع أبياتها .
فالبيت طويل يزيد طوله على عدد تفعيلات البيت التقليدى قليلا فى بعض الأحيان، وكثيرا فى بعضها الآخر .

وبحر المتدارك كان من أكثر البحور شيوعا فى الشعر الحر أو «شعر التفعلية» ، ولكن التفعيلة فيه كانت تأخذ صوراً أخرى تجعل نغمة هذا البحر تكاد تكون مختلفة عن «المتدارك» الذى تفعيلته «فاعلن» الكاملة، فى الأولى تحدث تجاوزات كثيرة تؤدى إلى هذا الاختلاف، فى الثانية لا تحدث تجاوزات إلا بالخبن الذى أشرت إليه آنفا ومن هنا فإنه يقترب من «المتقارب» وتفعيلته: «فعولن»، ولذلك فإنه فى الإنشاد إذا غفل القارىء أو المتلقى عن السبب الخفيف فى أول التفعيلة وهو ما يساوى متحركا وساكنا «فا» فإنه يتصور أنّ النغم هو بحر المتقارب لأنّ « .. علُنْ فا» تساوى «فعولن» . ومهما يكن من أمر فإن هذه مسألة تتعلق بالإنشاد .

وقد لاحظت أن عدداً من الشعراء الذين لا يكتبون إلاّ من الشعر الحر قد لجأوا إلى البيت الطويل المنتهى بقافية متفقة فى أبيات القصيدة كلها أو معظمها . فهل يعد هذا ضربا من الرجوع عن الشعر الحرّ كما تنبأت بذلك نازك الملائكة فى كتابها الشهير، أو إنّ قصيدة الشعر الحر بشكلها الذى بدأت به لم تعد تفى بحاجة الشعر الآن ؟ أو يعد هذا السلوك من الشعراء ردَّ فعل تلقائيا أمام ما يسمى قصيدة النثر حيث لا وزن ولا قافية ومع ذلك يتمسح أصحابه فى الشعر بإطلاق اسم «قصيدة» على منثوراتهم، وإطلاق اسم «شعر» على مجموعاتهم ، وإطلاق اسم شعراء على أنفسهم .

أيّا ما كان السبب فإن بعض الشعراء الآن رجعوا إلى البيت الطويل إلى حد ما والقافية الموحدة، وقد وجدوا فى «المتدارك» الجديد وسيلة نغمية تساعدهم فى تحقيق هذا الضرب الجديد من قصائدهم .

٤ - ثَمَّة مسألة أراها ضرورية، وهى طريقة كتابة القصيدة ذات البيت الطويل، وأقصد بكتابتها رسمها وطباعتها على الورق . كان البيت القديم يكتب علَى سطر واحد، وكان البيت فى الشعر الحر أول أمره يكتب على سطر واحد أيضا ، ولذلك كان يظهر نغم الشعر، ومن هنا كان للشّادين المبتدئين أن يتعلموا نغم الشعر فيقلدوه أول أمرهم إلى أن تستحصد ملكاتهم فيه، أو من كان منهم مُيَسَّرا لذلك .

نبتت بعد ذلك فى الشعر نابتة طال فيها البيت ولم تتحد القافية ووجدنا الشعراء يكتبون فى كل سطر جملة، أو جملةً وبعضَ جملةٍ لا تخضع لمعيار العروض ولا تخضع لمعيار النحو بحيث إذا قرىء السطر وحده لم يكن موزونا، وفى أحيان كثيرة لم يكن له معنى يحسن السكوت عليه، ولذلك لم تظهر نغمة الشعر واختفت تحت هذا التشعيث الذى لا مردود له ولا سند له إلا ملء عدد كبير من الصفحات فحسب . ومن

هنا وقر فى أذهان الشادين المبتدئين هذا الخلل العروضى للسطر المقروء، فظنوا أن الشعر يكون كذلك، ولعل هذا سرّ كثرة كتاب قصيدة النثر من جيل واحد .

القصيدة ذاتُ البيت الطويل، الموحدةُ القافيةِ لا يمكن أن يكتب بَيْتُها فى سطر واحد؛ ولذلك يتوزع البيت على أكثر من سطر، وهنا تصبح «القافية» حارساً أمينا على البيت فتكون النهاية معروفة وتكون بداية ما بعده معروفة، ولذلك توزع جمل البيت على الأسطر مع وضع فاصلة فى نهاية كل سطر دليلا على أنّ البيت لم ينته، وعند نهاية البيت بقافيته توضع نقطة دليلاً على نهاية البيت . وهذا مافعلته فى كتابة هذه القصيدة .

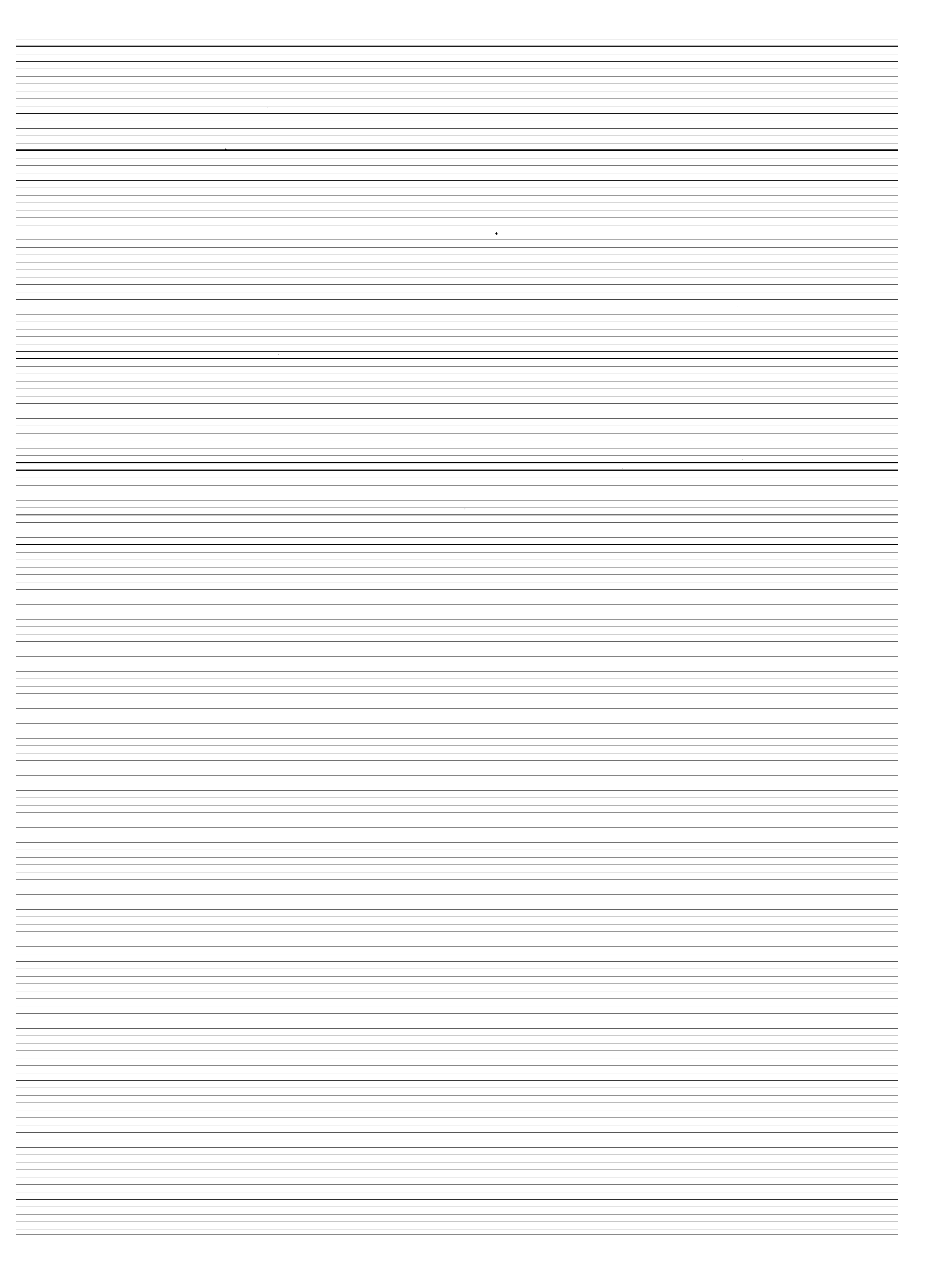
٥ - لعل فى ذهنك سؤالا، هو لماذا أنشر هذه القصيدة وحدها، ولم أنشرها فى إحدى المجلات المتخصصة، أو لم أنشرها فى ديوان مجموع .

ولعلك فى غنى عن القول أن هناك قصائد كثيرة نشرت مستقلة، يمنعنى ذكرَ أصحابها الخشيةُ من أن يكون هناك تصور أنى أقرن نفسى بهم، ولكل واحد من هؤلاء سببه أو أسبابه التى دفعته إلى ذلك .

أما أنا فقد رأيت أن هذه القصيدة أطول من أن أبعث بها إلى إحدى المجلات، وأصحاب هذه المجلات يريدون التنوع والكثرة، ولست صاحب حظوة لديهم حتى يفسحوا لى المجال وحدى .

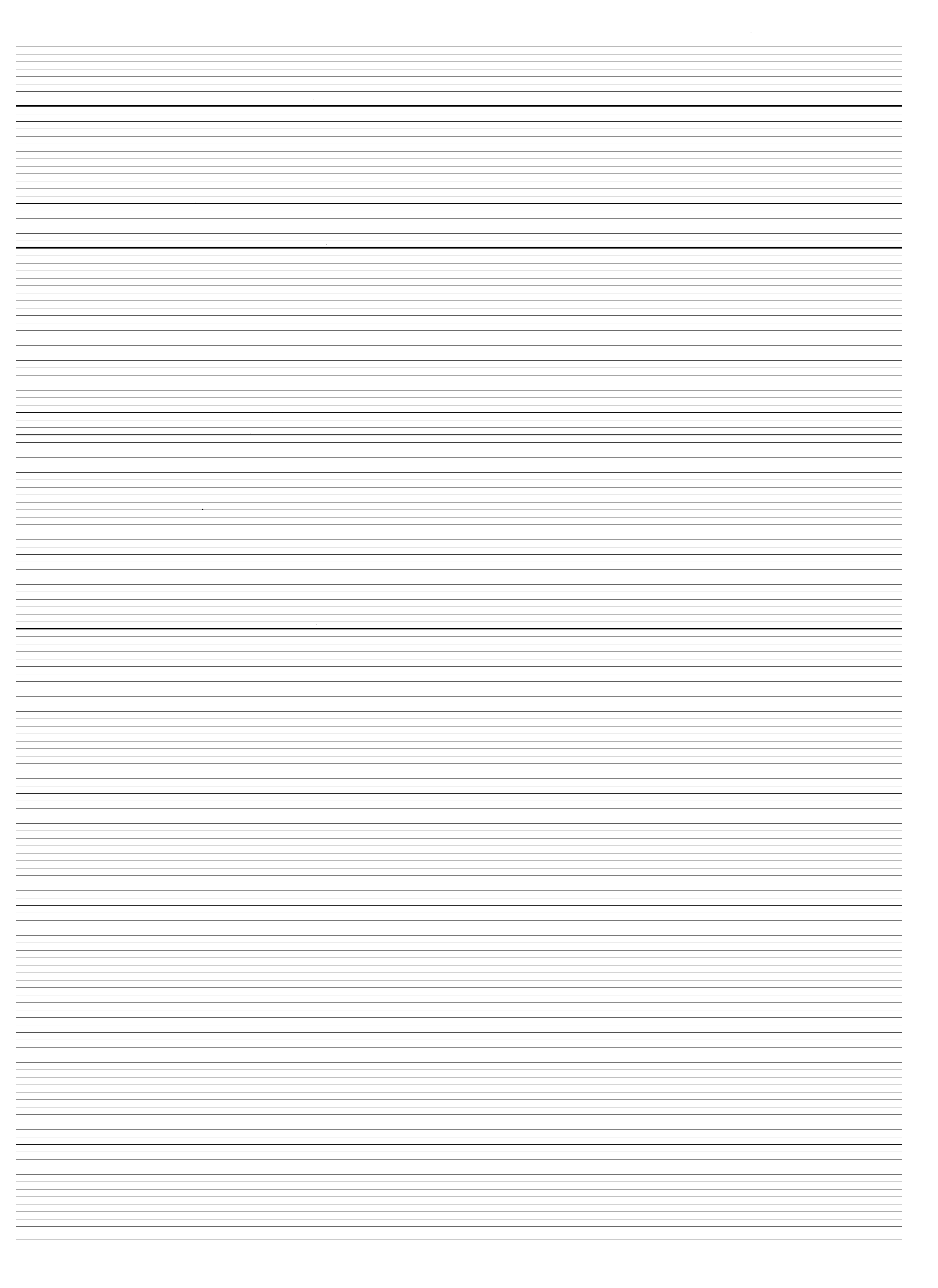
وليس هناك بأس من أن تنشر فى ديوان، وأنا بصدد جمع ما كتبته من شعر فى ديوان مستقل، ولكنها سوف تتأخر وقتا طويلا، وأريد أن أسارع بها إليك .

وإذا كان فى مسارعتى بتقديمها إليك ما يثير شيئا من غضبك فإليك اعتذارى سلفاً .





حِوَارٌ مَعَ النيل



حِوَارٌ مَعَ النّيل

• سِرْتُ والنّيلَ،

قُلْتُ: أُلاطِفُهُ، كانَ يبْكِي

فَرُحْتُ أهَدْهِدُهُ،

قُلْتُ: لا تَبْكِ، واحْكِ ، فَقَالْ .

● يابُنَيَّ، امْضِ ،

لا تُثِرِ الهمَّ ،

دعْنى وشَأْنِى ، هُمُومى ثِقَالْ .

● قُلْتُ: أُعْطِيكَ سَمْعِى وَقَلْبى ،

تخفّفْ من الَهمِّ ،

ليْسَ مَعَ الهمّ غيرُ الوَبَالْ .

● قال: إنِّى حَزِينٌ ،

وأنْت .. أَلَسْت حزيناً ؟

فَقُلْتُ : كلاَنا حَزينٌ عَلَى كُلِّ حَالْ .

● خَفَقَتْ نظرةٌ، قال: مَنْ أنْتَ ؟

ما تَبْتَغى ؟

ولماذَا يهمُّك وَحْدَك أَمْرِىَ دُونَ الجميعِ ؟

فقلتُ لَهُ لا تَخَفْ ،

فَأَعَادَ السُّوالْ .

● قُلْتُ : ياسَيِّدى، إنَّنى وَاحِدٌ مِنْ بَنيكَ،

وماؤَك يَجْرى دَماً فى عُروقى ،

وَطميُك شَدَّ عِظَامِى ،

وإمّا ابتعدتُ ؛ أحِنّ إليْكَ ،

وأَنْتَ لِيَ البدْءُ ، أَنْتَ المآلْ .

- طالَما كُنتُ أَجْرِى إلَيْكَ ،

ويَجْرِى رِفَاقى إليْكَ، فَتَحْملُنا فَوْقَ ظهرِكَ ،

نَلْهو، ونَلْعَبُ حتَّى يَدبّ إلْينا الكلالُ ،

ولا يَعْتَرِيك الملاَلْ .

- ظلّلتْ وجهَهُ المتغضّنَ مسْحَةُ حُسْنٍ قديمٍ ،

وفاضَتْ بِصَفْحَتِه الذّكْرياتُ ،

وقالَ بِحكْمتِه : لا تُبَالْ .

- قلتُ : ما كانَ أَوْسَعَ صَدْرَكَ ،

ماكانَ أوْعَرَ ظهرَكَ ،

كُنْتَ - برَغْمِ الذى كانَ منّا - جليلاً مهيباً ،

وفيكَ غموضٌ يُثيرُ الخيالْ .

- آهِ .. ماكانَ أخْوفَ قاعَك ،

كمْ ذا أردْنا الوصولَ إليْه ،

وكان المغامرُ منّا – إذا عادَ – يَحْمِلُ فى قَبْضَتَيْه قليلاً

من الطمْى والرمْلِ ،

رَمْزَ الوُصولِ ،

وكنْا نظنُّك تُخْفِى عَرَائسَ قُدّمْنَ مُنْذُ قَديمٍ إليْكَ،

وَجِنّـا مُلوكًا تقومُ عليها ،

وبَيْنَ يدَيْها صَناديقُ مملوءةٌ بالحريرِ، وَحُرِّ اللآلْ .

- آهِ .. كمْ أَطْرَبَتْك السَّوَاقى ،

وَشَدْوُ الطنابيرِ ،

نَزْعُ الشواديفِ ،

كنْتَ تُقَهقهُ : كلٌّ لَهُ ما يريدُ، ارتواء الحقولِ ،

وصَيْدُ الشبّاكِ، ومَلْء القلالْ .

- إنّهم عبدوك قديماً، فأنت لهم واهب الخير والخصْب ،

كانتْ ذِراَعاك تَحْتضنان الجميعَ ،

فهلْ كان أحفادُهم إذْ يقيمون مِنْ حَوْلك الصلواتِ

يؤدّونَ شكْرًا لخالقهمْ كىْ تَظلَّ تجودُ لهم بالنّوالْ ؟

- كانتِ الريحُ تَخْشاَك وَهْىّ تمرُّ علَيْك ،

فتسكنُ بينَ القلوعِ ،

فتجرى القلوعُ مُنَشَّرَةً مثلَ سِرْبِ حَمائمَ بيضٍ ،

ومِنْ تَحْتها حامِلاتُ الْغلالْ .

- حينَما كنتَ تغضَبُ فى شهر آبٍ ،

تهبّ الرّعيّةُ بالحبّ ، والخوفِ ، ليلَ نهارَ ،

تؤدّى إليك القرابينَ ،

حتّى يعودَ إليك الرّضا ،

ووَقارُ الجلالْ .

- كنْتَ تَجْرى عَزِيزًا ،

وَتْملأُ كلَّ الكؤوسِ عزيزًا ،

وتسْقى بعزّتِك المشتهاة قُلوبَ الرِّجَالْ .

- مالَكَ الآنَ صِرْت أسيفًا كسيفًا ،

ووَجْهُك قد غضَّنَ اليأسُ صفحتَهُ ،

ضاعَ ما كانَ فيه من السّحْرِ ،

وارتجفَتْ قَدَمَاكَ ،

وقَدْ نالَ منك الهُزَالْ !

- اعْتَدَى الشَّاطِئَان عليكَ بلا هَيْبةٍ ،

فاسْتكنْتَ ،

وصَارَتْ مياهُك آسِنةً ،

فسكَتَّ ،

وفَرّتْ من الضفَّـتين الطيورُ ،

إلى حيث تَلْتَقِطُ الحبَّ والخسْفَ ،

غاضَتْ على الجانبْينِ الظِّلالْ .

- أيْنَ ما كانَ فيك من الكبرياءِ ،

وأين الألوهة والرّهبوتُ ،

وأين القرابينُ ،

أين الإباءُ ،

تكلَّمْ ،

وأين الجلالُ ، وأين الجمالْ ؟

- أَتُرى آنَ أَنْ تُسْلِمَ الروحَ بعد القرونِ الطِّوالِ ،

وأَنْ تَسْتَجيبَ لِقَهْرِ الزّوالْ ؟

- اسْتَجاشَتْ بِهِ الْحَسَرَاتُ ،

وقال بصوتٍ ضعيفٍ : تعالَ إليَّ ، ادْنُ منِّي ،

تعالْ .

- قلتُ : هَاتِ ، فإنّى مُصيخٌ إليْكَ بسَمْعى وقَلْبى ،

ولكنّه حَطَّ جَبْهته فوق راحتِهِ ،

سَكَنتْ كلّ أعضائه ،

كانَ يَسْتَجْمِعُ المُخْزِياتِ الثِّقالَ ، وعَسْفَ الليالْ .

- حينَ همّ بأنْ يتكلّم ، مَرّ على صدْرِهِ فُلُك ماخرٌ ،

فوقَهُ ثلّةٌ مِنْ سكارَى ،

وعاريةٌ تتلوَّى ،

وصَوْتٌ قبيحٌ يجاهدُ أنْ يتغنّى ،

ودَقٌّ طبولٍ يدكُّ الفَضَاءَ الثقيلَ ،

فضاقَ به الصدْرُ ،

واختنقتْ رئتاهُ ،

فضاعَ الكلامُ معَ الحشْرَجاتِ ،

وَظلَّ يُعاني السُّعَالْ .

- انتظرتُ ، ولم أَدْرِ مَاذا أَقُولُ حياءً ،

وطالَ انْتِظَارِى ،

وقَدْ كادتِ الشَّمْسُ تَدْخُلُ وَقْتَ الزَّوالْ .

- حينَ عادَ إليه الهدوءُ الحزينُ ،

وزَايَلَهُ الأَلَمُ المسْتَفِزُّ ،

عَلَتْ وجهَهُ حَسْرةٌ ما تزالْ .

- قال لى : يابُنىّ ، أَيُرْضيك ما قدْ رأيْتَ ؟

فقلْت : تحّملْ ،

فقالَ : لقدْ ضاق بى الاحتمالْ .

- إنكمْ هكذا تسكتونَ عن المعتدى ،

شأنكم شأنُ عالمكمْ ،

وتَلُومُونَنى ،

والذى قلْتَ لى مِنْ قليلٍ مثالْ .

- إنّنى ها هنا قبلَ سَبْعين قرنًا ،

وقد قلْتمُ : مِصْرُ بَعض هِبَاتى ،

وكم راح وَالٍ ،

وكم جاء والْ .

● كنْتُ أجرى عزيزًا – كما قلْتَ –

كنْت أفجرّ فى أرضكمْ ذهبًا أبيضًا يستزيد به الأغنياءُ ،

وَيكْفى الأعفّاءَ ذُلَّ السُّؤالْ .

● كانَ أَهْلى يقومون فى الفَجْر ،

يَبْتَدِرونَ الحقولَ ، ويبقوْنَ حتّى الغروبِ ،

وكانوا ينامونَ بعَد صلاة العشاءِ بأكْرمِ نَفْسٍ وأَصْلَحِ بالْ .

● فجأةً .. أهملونى ،

وقدْ قيَّدُونى ،

وصاروا يَبيتونَ فى المُلْهِياتِ ،

وقدْ زَرَعُوا أرْضَهم شَجَرًا مِنْ رمَالْ .

- إنهمْ هَجَرُونى إلَى النِّفْطُ ،

حتّى تمنّيتُ أنْ يَجْرِىَ النِّفْطُ فى قَنَواتى ،

بَديلاً لمائى الزُّلالْ .

- إنّهمْ بَدَّلوا مُنْذ أَنْ هَجَرونِىَ أخْلاقهْم ،

وملابسَهمْ ،

ثم صِرْتُ أَرَاهمْ كأنّهمُ وافدون من الشَّرقِ ،

أوْ وافدونَ منَ الغَرْبِ ، لا ينتمونَ إليَّ ،

وصِرْتُ غريبًا بأعْيُنِهمْ ، وهُمُ الغُرَباءُ ،

وهذَا خَبَالٌ .. وأَيٌّ خَبَالْ .

- إنَّ أمْوَالهمْ لم تَسِلْ منْ عروقى ، كما كان قبْلُ ،

فهنْتُ عليهمْ ،

وزَاحمَنى الشّاطئانِ ،

وصِرْتُ لهمْ كحصانٍ عجوزٍ ،

يُريدُونَ قتْلى ،

وقدْ كنتُ من قبْلِ ذَا مَرْكبًا لا يُنالْ .

- هَلْ أُحذِّرُكمْ ؟

كانَ فرْعونُ يفْخَرُ بى ، وبأنِّىَ أجْرِى هنا تَحْتهُ ،

ثمّ صَارتْ مياهى دَمًا ،

حينَ ضلَّ عن القصْد ،

لم أخْشَهُ ،

هكذا كلّ حال بحالٍ ،

أكونُ زُلالاً إذا كانَ قَصْدٌ ،

،أُضْحى دمًا إذْ يكون الضَّلالْ .

- إنّنى مُرْسَلٌ منْ عُيون السماءِ ،

ومنْ عنْد ربّ شديدِ الـمِحالْ .

- إنّنى مُرْسَلٌ منْ عُيون السماءِ ،

ومنْ عنْد ربٍ شديد الـمِحالْ .

- منْذُ قيّدتُمونى ، تبعتكمُ ، ورضيتُ القيودَ ،

وقد كنتمُ تابِعىَّ ،

وإنّى لأعْلَمُ ما للمقيَّدِ رأْىٌ يقالْ .

- إنّنى قدْ سمِعْتُ – على ضعْفِ سَمْعِىَ –

أنَّ الّذى سرَق الأَرْضَ ،

قدْ جاءَ يسْعَى كسَعْى الصِّلالْ .

- إنّه قد يريد شراءً لبعض مياهى ،

– ومائى حرامٌ عليْه –

ولم أسمع النّفْى منكمُ ،

وهذا ، لعَمْرى ، احتلالٌ بغَيْر احتلالْ .

- كنت أَسْقى الجميعَ ،

مَنْ ذاقَ مائىَ عادَ إلىّ ،

ولكنّنى لَسْتُ أَسْقى اللّصُوصَ لكيْلا يَعُودُوا إلىّ ،

وأُوثرُ أَنّى أَغِيضُ على فِعْل مالا أُحبُّ ،

وذلك داءٌ قديمٌ برانى ، وأورثنى الاعتلالْ .

● فاحْفَظُونى لكمْ ،

إنّ عَزّتكمْ عِزّتى ،

لا يُقدَّرُ مائى بمَالْ .

● إنّ عِزّتكمْ عزّتى ،

لا يقدّرُ مائى بمالْ .

- لا يُقدّرُ مائى بمالْ .
- قلتُ : يا سيّدى النيلُ ، هَوِّنْ عليك ،

ولاَ تْبتئسْ ،

نحنُ منْك إليْك ،

إليْك اعتذارىَ عَمَّا فعلْنا ،

فأنْتَ لَنا البدْءُ ، أنْتَ المآلْ .

- السّلامُ عليْك ، عَليْك السَّلامُ حزينًا ،

عليك السَّلامُ قويّا ، عليْك السَّلامُ ضعيفًا ،

عليْكَ السَّلامُ وفيًّا ،

علَيْكَ السَّلامُ الأَبىُّ الحقيقىّ فى كلّ حالْ .

● قال : أنْتَ مللتَ حديثى ،

فقلْتُ له : كيف ذاكَ ، وإنِّى الذى قد رجوتُك
أَنْ تتحَدَّثَ ،

قال : رميْتَ السَّلامَ ،

فقلْتُ : السّلامُ ابْتهالْ .

● قالَ : قُلْتَ « السّلامُ عليك ضعيفًا »

ولسْتُ ضعيفًا ،

ولكنّنى إنْ ضعفتم ؛ ضعفتُ ،

وإمّا قوِيتُم ، قويتُ ،

فإنّى وإياكمُ توأمانِ حياتهما فى توالْ .

● قلْتُ : نحن نجيءُ ونمضى ،

وأنت هنا شاهدٌ ،

قال : مائى يجىء ويمضى تجاه الشَّمالْ .

- أنتمُ فرْحتى ، أنتمُ ترْحتى ،

أنتمُ قُوّتى ، أنتمُ رأسُ مالْ .

- ربّ نهرٍ يجفّ ، لأنّ عقولَ ذويه تجفُّ ،

ونهرٍ يفيضُ ، لأنّ عقول ذويه تفيضُ ،

فيروى التِّلالْ .

- قُلْتُ : يا سيِّدى النيلُ ،

نَحْنُ نُحبُّكَ ،

قال لِىَ : الحبُّ فِعلٌ ، ولَيْسَ كَلامًا يُقَالْ .

● هَؤْلاءِ الَّذينَ يمرُّونَ مِنْ فَوْقِ صَدْرِي سُكَارَى
يُحبُّونَنِي ؟

قُلْت : لَيْسوا ذَوِيكَ ،

ولكنّهمْ مِنْ ضُيوفِكَ ،

قَالَ : ضُيُوفٌ ثِقالٌ .

● كمْ تَغَنَّيْتُمُ باسْمِرَارِي ، وفَيْضِ عَطَائِي ،

وحَوْلكمُ الأَرْضُ عَطْشَى تُرِيدُ اخْضِرَارًا ،

وتَعْدُو عَلَيْها الرِّمَالْ .

- إنكُمْ تَرْقُبونَ الأَمانيَّ مِنْ شُرفة المستحيلِ ،

وتَحْتَلبُون النّجومَ انْتِظارًا ،

وليس مَعَ الْعِلْمِ شيءٌ عُضالْ .

- حينَ أَبْصَرْتُ أنِّيَ فِيكمْ بِلا عَمَلٍ ،

رُحْتُ أَبكي ،

وَهذَا جَوَابُ السُّؤَالْ .

- قُلْت : يا أَيُّها النِّيلُ رِفْقًا ،

فإنَّا قَدَرْنَاكَ قَدْرَكَ ،

واسْأَلْ بنَا عَنْ شِمَالك أَرْضَ الرِّمَالِ ،

تخبِّرْكَ أنّا نَخُوضُ المُحَالْ .

- قال : أمْرٌ دُفِعْتُمْ إِلَيْهِ ،

ولم تَفْعَلوا مثلَهُ منْ سِنين خَوَالْ .

- ثم حوّل عَنّىَ وَجْهًا حزينًا ،

وَعيْنَيْن رَقْرَاقتين ،

وقال : أَثَرْتَ شجونى ، وأخْرَجْتَ بَعْضَ همومى ،

فَقُلْتُ الَّذى لا يقالْ .

- كانتِ الشَّمْسُ قَدْ آذَنَتْ بالمغيبِ ،

فهبَّ المغَنّونَ والرَّاقصُون على متْنِه ،

يَتَبارَوْنَ ذاتَ اليمينِ وذَاَت الشّمَالْ .

- قُلْتُ : يا سيِّدى النِّيلُ ، حَسْبُكَ ،

إنِّى وعَيْتُ حَدِيثَكَ ،

قال : السَّلامُ عَلَيْكَ ،

فَقُلْتُ : عَلَيْكَ السَّلامُ إلَى أَنْ أَرَاكَ بِأَحْسَنِ حَالْ .

محمد حماسة

صدر للشاعر :

١ - ثلاثة ألحان مصرية (بالاشتراك) نفد الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٠م .

٢ - نافذة فى جدار الصمت (بالاشتراك) نفد مكتبة الشباب ١٩٧٥م .

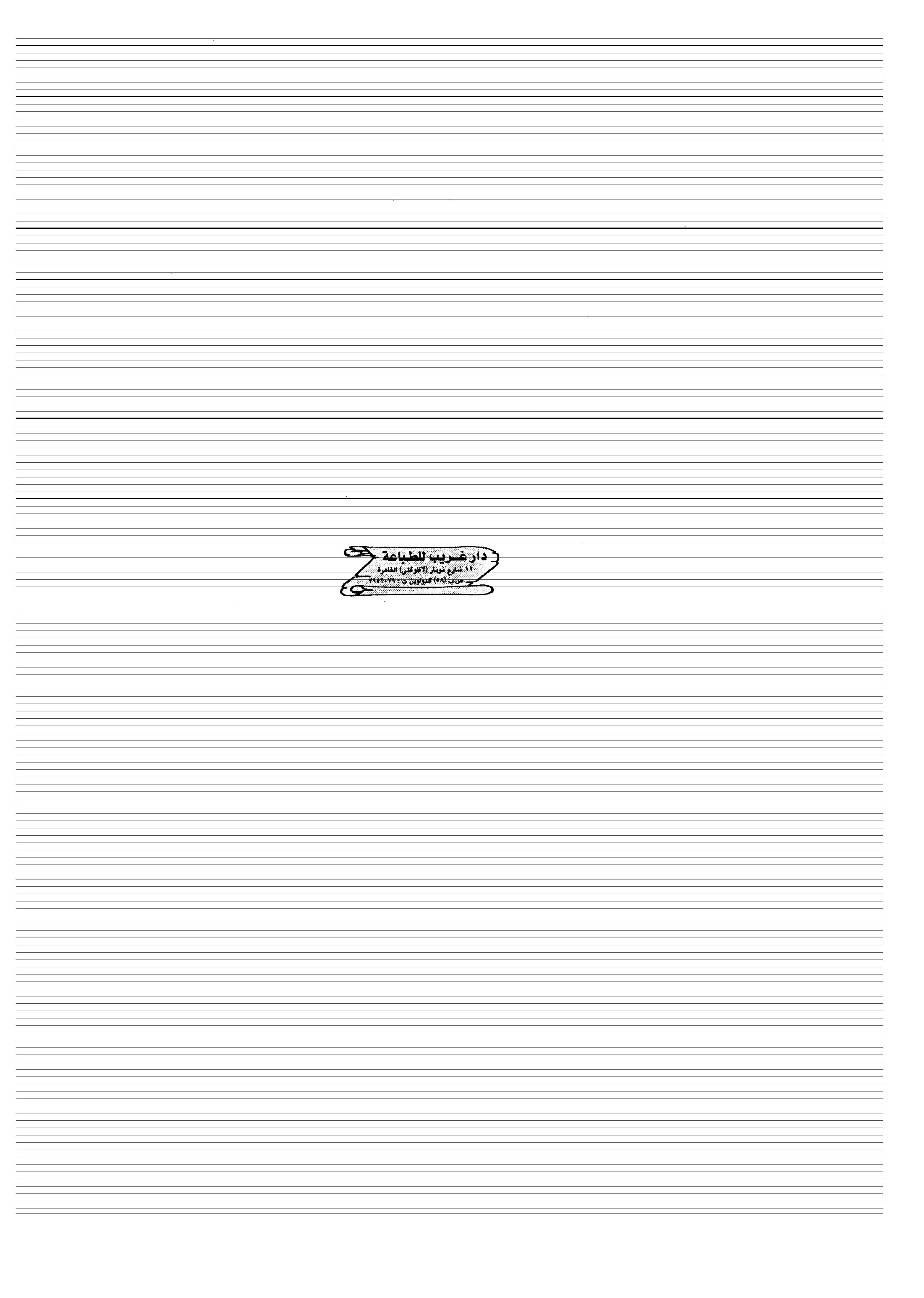
٣ - حوار مع النيل .
دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٠٠ م .

تحت الإصدار :

١ - لكننا نسير .

٢ - الطيور تنقر فى القلب .





دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلي) القاهرة
ص.ب (٥٨) الدواوين ت : ٧٩٤٢٠٧٩

